نماذج من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم

- دراسة دلالية -

الأستاذ الدكتور : دفة بلقاسم
قسم الأدب العربي
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة محمد خيضر -بسكرة (الجزائر)

ملخص:

إن للصوت اللغوي أهمية في دراسة النص القرآني، من حيث إنه البنية اللغوية الصغرى المكونة للكلمات و التراكيب والآيات، إلى جانب ذلك فهو عنصر أساس في الإعجاز القرآني.والقرآن ينتقي الأصوات اللغوية بحسب الدلالات قصد تجسيد المعاني في أحسن صورة، وقد ارتبطت الفواصل القرآنية بمعاني التركيب و الآيات، فلم يقتصر القرآن على رعاية حسن النظم فحسب وإنما كان الاهتمام مع ذلك وقبله بالمعنى. و يعد العدول الصوتي، وهو أداة جمالية، غايته جذب الأسماع من خلال خرق قوانين اللغة النموذجية، أو كسر الإيقاع، وذلك لرفع الرتابة عن المتلقي بواسطة التنوع و المراوحة بين الكم التنغيمي أو المغايرة الإيقاعية. ويتسم الصوت القرآني بقوة التأثير انطلاقا من سهولة الأصوات حين ائتلافها وإحساس الأذن بعذوبتها حين الترتيل و التجويد.

Résume :

La Voix de l'importance du langage dans l'étude du Coran, en termes de structure linguistique que le micro-constituants et des combinaisons de mots et des vers, avec un élément qui est à la base de la nature miraculeuse du Coran.

Et le Coran de choisir la langue en fonction de la voix afin de tenir compte de la signification existentielle de la meilleure image, a été associée à des intervalles de versets coraniques et les thèmes de l'installation, le Coran, non seulement de prendre soin de bons systèmes, mais l'attention a été, cependant, et de sens.

Et le son est inversée, ce qui est de l'esthétique, en attirant entendu par une violation des lois de la langue modèle, ou de briser le rythme, de manière à lever la monotonie du destinataire par le statu quo entre la diversité et la quantité Altnghimi ou rythmiques différentes. Coran influence fortement le son de la facilité de la voix tandis que son oreille et un sens de Badhuptha alors que le chant et la récitation.

.

تمهيد:

القرآن الكريم كلام الله المعجز للخلق في ألفاظه و تراكيبه، في أسلوبه و نظمه، و في علومه وحكمه، و في تأثير هدايته للبشر. فقد تحدى الرسول محمد صلى الله عليه و سلم العرب بإعجازه. أما الطريقة التي اتخذها هذا التحدي فهي اقتصاره في البدء على طلب المعارضة بمثل هذا القرآن، إذ يقول الله تعالى: " قل لئن اجتمعت الإنسُ و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثله و لو كان بعضُهم لبعض ظهيرًا " الإسراء، 88. ثم استفزهم مرة أخرى أن يأتوا " بعشرِ سُور مثله مفتريات " هود،13. و استفزهم بعد ذلك جملة واحدة، فقال: " و إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله و ادعوا شُهداءَكم من دون الله إن كنتم صادقين" البقرة،23. فقطع لهم أنهم لن يأتوا بذلك أبدا، " وهي كلمة يستحيل أن تكون إلا من عند الله ، ولا يقولها عربي في العرب أبدا ، وقد سمعوها واستقرت فيهم ودارت على الألسنة ، وعرفوا أنها تنفي عنهم الدهر نفيا وتعجزهم آخر الأبد فما فعلوا ولا طمعوا قط أن يفعلوا "(1). و كان الغرض من التحدي " إقامة الحجة، و إظهار وجه البرهان، لأن المعجزة إذا ظهرت، فإنما تكون حجة بأن يدعيها من ظهر عليه، و لا تظهر على مدع لها إلا و هي معلومة أنها من عند الله "(2). و لما لم يقدروا على الإتيان بالحجة انقطعوا عن المعارضة.فالقرآن الكريم سحر الناس ببيانه، فانجذبت نحوه القلوب و العقول، فقال الناس : إنه سحر، وقال آخرون : إنه شعر، و قال بعضهم : إنه قول كاهن، و ما هو بذلك، إنه " ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة،

و إذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها و نظامها، و تصف الآخرة فمنها جنتها و صرامها، و متى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب، وإن أرعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب "(3).

و القرآن الكريم بحر شاسع ليس له قرار، و قد تفجرت منه شتى أنواع المعارف و العلوم، فكان معجزها و منبعها؛ فالفقيه يستنبط منه الأحكام الشرعية، و النحوي يبني منه قواعد التراكيب و الصيغ، والبياني يهتدي به إلى حسن النظام، و طرائق الفصاحة و البلاغة في صوغ الكلام، و المفسر يشرح آياته و يبين غريبه و محكمه و متشابهه، و هكذا فكل باحث في أي علم لاشك أنه يجد فيه ضالته. و لاغرو أن يكون للقرآن الكريم شأن عظيم في أمر المسلمين، فهو النموذج الذي يحتذى به في أساليب البلاغة، و هو منبع فلسفتهم الروحية و الخلقية و السياسية و الاقتصادية...

حقيقة الإعجاز القرآني

المعجزة هي الأمر الخارق للعادة، يظهره الله على يد أنبيائه تأييدا لرسالته، فهي معجزة للبشر على أن يأتوا بمثل ما جاء به الأنبياء و الرسل، و هي مقرونة دوما بالتحدي، فقد أورد السيوطي (ت 911هـ) " أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرونة بالتحدي سالم عن المعارضة، و هي إما حسية و إما عقلية "(4). فأما كون القرآن خارق للعادة فمخالفته أسلوب العرب في كلامهم، فهو ليس بشعر، و لا هو بنثر مسجوع تعارفت عليه العرب، لذلك تعذر على العرب بل على الفصحاء منهم أن يأتوا بمثله، و لو بآيات مفتريات

من عند أنفسهم. و سبيل نظام القرآن معجزة إلى الأبد، و فيه مظهر عجيب لإعجازه الخالد، فهو ينفرد بأسلوبه، في ألفاظه، و تراكيبه،
و معانيه، و عدم اختلافه و تناقضه، " و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا ". النساء، 82. و لقد تأكد هذا الأمر لبلغاء العرب فتيقنوا أنه جنس من الكلام غير ما تؤديه سجيتهم وطباعهم.

الإعجاز الصوتي:

نزل القرآن الكريم باللغة العربية، و اللغة في جوهرها عبارة عن أصوات أو مقاطع صوتية، فهي المادة الأساس المكونة للغة، فاللغة كما يرى ابن جني (ت 392هـ) هي عبارة عن أصوات يعبر بها قوم عن أغراضهم، و أن بين الأصوات و معانيها تناسبا، فيقول : " فأما باب مقابلة الألفاظ بما يشكل أصواتها من الأحداث فباب واسع ... و ذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها "(5). و إذا قلنا : إن إعجاز القرآن في نظمه و بناء أصواته و كلماته، فإن بداية نسجه
و تأليفه تبدأ من هذه الوحدة الصغرى (الصوت) التي تشكل بناء الكلمات، و هذه الكلمات تشكل بدورها بناء الجمل و التراكيب التي يكون لكل منها معنى مفيد و مستقل بنيويا.

و مصطلح " الصوت " في الدراسات التراثية العربية يقابل الحرف(6)، وحتى عند بعض المحدثين، فلا فرق بينهما. و الذي جعل القدامى يولون اهتماما لدراسة الصوت تعدد قراءات القرآن الكريم، فمخارج الصوت و صفاته، " إنما أخذ أكثرها من ألفاظ التراث لا من كلام العرب و فصاحتهم، لأن هاهنا موضع القول فيه، فإن طريقة النظم التي اتسقت بها

ألفاظ القرآن، و تآلفت لها حروف هذه الألفاظ، إنما هي طريقة يتوخى بها إلى أنواع من المنطق و صفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب ولكنها ظهرت فيه أول شيء على لسان النبي صلى الله عليه و سلم فجعلت المسامع لا ينبو عن شيء من القرآن "(7).

فالقرآن الكريم كتاب خالد، له في كل عصر دليل من الإعجاز، فهو كلام الله مبنى و معنى، وقد وصف الله سبحانه كتابه بقوله : " كتابٌ أحكمت آياتُه، ثم فصلت من لدن حكيمٍ خبير هود ،1. و هو كتاب يظل أبد الدهر يستنهض عقول الباحثين لمزيد من العلم في أعماقه الممتدة، و أفاقه البعيدة، " قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي و لو جئنا بمثله مددًا " الكهف، 109. فكلام الله غير متناه، " و لو أنما في الأرض من شَجرة أقلام و البحرُ يمده من بعده سبعةُ أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم " لقمان ،27 . فكل باحث في لغة القرآن يتيسر له من أدوات بحثه جانبٌ من الجوانب، و تظل بعض الجوانب مجهولة.

و نعود إلى الحديث عن الإعجاز الصوتي الذي يأتي على هيئة خاصة من التشكل أو البناء الصوتي، سواء أكان ذلك في كلماته أو جمله أو آياته، أو على مستوى إيقاع السورة بأكملها،

و مدى ملاءمة ذلك و اتساقه و انسجامه مع المعاني التي تهدف إليها السورة، و على نحو من المواءمة والمطابقة العجيبة التي لا يمكن أن تحدث في كلام البشر بهذه الدرجة من التطابق و التناسب لمعاني الكلام(8). و يؤدي هذا الجمال الصوتي الناشئ عن الاتساق و الانسجام بين أصوات الكلمة و الكلمات في الجملة إلى سرعة دخول المعنى إلى العقل، لأن الأذن تتلذذه، و ترتاح إليه، كما تتمتع العين برؤية المنظر الجميل.

و اللسان العربي يميزه الجانب الموسيقي الإيقاعي في أغلب نواحيه، و القرآن نزل بهذا اللسان، و جمالية التركيب القرآني تبرز في اتساق المقاطع و تناسقها و انسجامها، و في هذا يقول الرافعي: " فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، و كلماته في جمله، ألحانًا لغوية رائعة،كأنها لائتلافها و تناسبها قطعة واحدة، قراءاتها هي توقيعها فلم يفتهم هذا المعنى،و أنه أمر لا قبل لهم به "(9). و يقول كذلك : " و حسبك بهذا اعتبارًا في إعجاز النظم الموسيقي على ذلك الوجه الذي هو فيه لا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها و مخارجها، و مناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس و الجهر، و الشدة والرخاوة، و التفخيم و الترقيق، و التفشي و التكرير،..."(10).

و يبقى للطبع السليم و الذوق الرفيع في تحديد مواطن جمال الكلمات، و تمييز ما فيها من مظاهر الاستكراه، لأن الألفاظ أصوات، و الإنسان بطبعه يحب كل ما هو حسن، و يكره كل ما هو قبيح، و هو ينسج كلامه ينتقي في اختياراته ما تميل إليه النفس، و يرتاح إليه سمعه، تحت طائلة من البواعث الجمالية، تحفزه إلى اختيار كلمة و تفضيلها على أخرى، و هذا كثير في لغة القرآن الكريم، حيث إنه يجمع بين حسن الصوت، و دقة المعنى.

و سأقدم في هذا البحث المتواضع من النماذج التطبيقية ما يؤيد هذا الطرح، و أظهر ما تؤديه الخصائص الصوتية في إبراز الدلالة، انطلاقا من صفات الأصوات و انتهاء إلى مقصود المتكلم.

و الإعجاز الصوتي يجعلنا نقوم بالكشف عن طبيعة العلاقة بين الكلمة و دلالتها، و على أساس أن هذا البحث يعالج الصوت القرآني بعامة، فإن الاختيار سيتم بالنظر إلى طبيعة العلاقة بين الصوت و ما يدل عليه، سواء بواسطة المحاكاة، أو الإيحاء المرتبط أكثر بالمعنى النفسي المستنبط من مخرج الحرف و صفته، مع استثمار التراث اللغوي و البلاغي. و لست في هذا الموضوع بصدد الحديث عن كل الظواهر الصوتية في القرآن الكريم، بل سأقف على ظاهرتي العدول، و التكرار الصوتي بعدهما ظواهر صوتية، تربطهما بالدلالة علاقة متينة، و هي الإجراءات التطبيقية التي أتناولها في هذا البحث المتواضع.

1-المحاكاة بهيئة الصوت.

المقصود بالمحاكاة –هنا– الصورة المجسمة التي ترسمها الكلمة في أذهاننا، فالتصوير الفني في القرآن الكريم يتم بالحركة

و الإيقاع، و كثيرا ما يشترك الوصف و الحوار، و جرس الكلمات، ونغم الجمل في إظهار صورة من الصور، تدرك جمالها و معناها الأذن، و الحس و الوجدان... يقول سيد قطب : " التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة التخيلية عن المعنى الذهني... و أن الأداة التي تصور المعنى الذهني و الحالة النفسية و تشخيص النموذج الإنساني، أو الحادث المروي، إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألون تصور، و لا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن "(11).

إن حلاوة القرآن و جماله نابعة من ألفاظه من حيث هي أصوات، توحي إلى السمع بتأثيرات تجعل المعنى قريبا إلى فهم المتلقي، و لو أن ألفاظ

القرآن تستوي كلها في الفصاحة، إلا أن الأساس في ذلك يكمن في انتقاء الأصوات المناسبة في تأدية المعنى في كل مناحيه، سعيا وراء الدقة في التصوير مع ما يتناسب و السياق و الموقف، فالانتقاء يكون دلاليا بواسطة توظيف البنية الصوتية الدالة على المعنى بإيقاعها و جرسها و إيماءاتها.

و نجد عند أبي حيان الأندلسي (ت 745هـ) لما نحن بصدد معالجته، في قوله تعالى : " فلا تقل لهما أُفٍ و لا تنهرهما " الإسراء 23. فقال : " أُفٍ : اسم فعل بمعنى أتضجر...

و الانتهار: إظهار الغضب في الصوت و اللفظ "(12).

و قال ابن عاشور: " أف: اسم فعل مضارع بمعنى: أتضجر، و فيه صوت دال على التضجر، أقله الأذى باللسان "(13). فلفظ " أُفٍ " مطابقة في صورتها تمامًا لنطقها، أي: الدال يوافق المدلول.و ورد مثل هذا في مواضع أخرى من القرآن، و من ذلك كلمة " صرصر "، و هو وصف للريح الشديدة، يقول الله تعالى :

" فأرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا في يوم نَحْس مستمر ". القمر 19، ويقول: "و أما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ". الحاقة 6. يقول صاحب البحر المحيط في قوله تعالى : " ريحًا صرصرًا "، أي :

" عاتية على خزانها، فخرجت بغير مقدار، أو على غير عاد فما قدروا على أن يستتروا منها، و وصفت بذلك لشدة عصفها"(14).

و قال ابن عاشور : " الصرصر : الرياح الشديدة، يكون لها صوت كالصرير "(15).

ففي لفظة " صرصر "، أي صيغة " فعلل " تكرار لصوت الصاد و الراء، و في الصاد صفير، و في الراء تكرار انفجاري، و ذلك يوحي بقوة الريح و ضراوتها. و من ذلك –أيضا– ما ورد في قوله تعالى : " يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ". الطور 13، يقول سيد قطب : إن " لفظ الدع يصور مدلوله بجرسه و ظله جميعا، و مما يلحظ –هنا– أن لفظ "الدع" هو لدفع في الظهور بعنف، و هذا الدفع في كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتا غير إرادي فيه عين ساكنة ... و هو في جرسه أقرب ما يكون إلى جرس الدع "[16]. و لما كانت لفظه " الدع " أقوى من " الدفع " جرسًا و معنى آثر القرآن اختيارها، إذ تتضح مزية انتقاء الألفاظ على بدائلها التي تشترك معها في حقل دلالي واحد.

و المحاكاة بهيئة الصوت تظهر جليا في أصوات الصفير (السين، و الشين و الصاد)، و العين و الكاف، فمن السين ما جاء في قوله تعالى: " فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس و الليلِ إذا عسعسَ ". التكوير 15–17. فصوت السين لثوي رخو مهموس، و الله تعالى أقسم " بالخنس" ، و هي : الكواكب التي تخنس في بعض دوراتها، فلا تبرز، و " الكنس " : النجوم التي يخفيها ضوء الشمس فكأنها في كناس، أي : بيت الظباء، و " عسعس " : أي : اشتد ظلامها. و لو تأملنا هذه الصورة التي جسدها القرآن لوجدناها دالة على السكينة و الهدوء.

و من الصاد ما جاء في قوله تعالى : " فإذا جاءت الصاخَّةُ" عبس، 33. فصوت الصاد في لفظ " الصاخة " ذو جرس شديد، " يكاد يخرق صماخ الأذن، و هو يشق الهواء شقا حتى يصل إلى الأذن صاخبا ملجا، و هو يمهد بهذا الجرس العنيف للمشهد الذي يليه "[17]، و هو مشهد الإنسان و هو يفر

من أقرب الناس إليه، إذ يفر المرءُ من أخيه، و أمه و أبيه، و صاحبته و بنيه، لكل امرئٍ منهم يومئذ شأنٌ يغنيه ". عبس، 34-37. فأولئك الذين يفر منهم المرء يوم القيامة، تربطهم به روابط لا تنفصم، ولكن الصاخة تقطع تلك الروابط و تمزقها تمزيقا.

و إذا أنعمنا النظر في صوت الشين، و هو صوت لثوي حنكي رخو مهموس، و هو للتفشي، لأن الهواء يتفشى عند ارتفاع طرف اللسان إلى مؤخر اللثة و مقدم الحنك الأعلى عند نطقه، فهو يصور تفشي الحدث و اتساع مداه، و لنمعن النظر في دلالة هذا الصوت في قوله تعالى : " هَمازٍ مشَّاء بنميم ". القلم 11، فصوت الشين في لفظ " مشاء " يصور انتشار النميمة، مع زيادة قوة تفشي هذه الصفة في تضعيف العين و مد الصوت بحركة الفتح الطويلة.

أما الكاف فصوت حنكي شديد مهموس، يدل على تجسيد أحداث توصف بالشدة و العنف، فمن ذلك قوله تعالى: " فأقبلت امرأتُه في صرة فصكتْ وجهها و قالت عجوزٌ عقيم ". الذاريات، 29، فالصك، و الدك أحداث عنيفة، و أصواتها تحاكي أحداثها محاكاة، لأصوات طبيعة فيها، حيث إن الصك صوت ناتج عن لطم الخد، و ذلك صوت للاصطدام بالأرض، و يبدو تفاوت قوة الاصطدام بين اللفظين انطلاقا من صوت الدال لجهره في لفظ " الدك "، و ضعف صوت الصاد لهمسه في لفظ " الصك ".

2- العدول الصوتي

المقصود بالعدول الصوتي هو الخروج و الميل عن قواعد اللغة المثالية. و المثالية في الأصوات توجد في الصوت المفرد،

و في الصيغ الصرفية، و في تركيب الجمل.

و قد قنن اللغويون و النحاة الكلام العربي وفق اللغة المثالية، " و انتقل الأمر منهم إلى البلاغيين، فنظروا إلى النحو باعتباره العامل الأساس في تأدية أصل المعنى "(18). و إذا كان النحاة "قد أقاموا مباحثهم على رعاية الأداء المثالي، فإن البلاغيين ساروا في اتجاه آخر، حيث أقاموا مباحثهم على أساس انتهاك هذه المثالية و العدول عنها في الأداء الفني "(19).

و لقد كان الخروج عن الاستعمال العادي عند العرب القدامى ملمحًا من ملامح الجرأة، لذلك سماه ابن جني بشجاعة العربية، ليدل على مرونة اللغة العربية و طواعيتها في التعبير عن أغراض المبدع، إذ يقول : " و من المجاز كثير من باب الشجاعة في العربية من الحذوف و الزيادات و التأخير و الحمل على المعنى و التحريف "(20).

يأتي المتكلم بالعدول لينتهج أسلوبا في الكلام لا ينسجم مع الأساليب التي جرت العادة على استخدامها، و قد وجد القدامى أن مثل هذا الأسلوب يبرز من خلال كسره للنظام اللغوي النموذجي، وهو يتجاوز في بلاغته " حدود التعامل الحرفي مع معطيات اللغة، و يستوجب التوسع أو الاتساع تأويلا و تخريجات من المتلقي، و هذا أمر عول عليه النقاد و البلاغيون العرب كثيرًا، و ربطوه بالأثر النفسي الذي من خلال التوسع في استخدام العبارات و الأساليب التي لا تنكشف أبعادها إلا بعد مصاولة و معاودة، فالنفس تشرئب و تنزع إلى تصور المعنى المدلول عليه باللفظ "(21).

إن مخالفة اللغة المثالية أو النظام النمطي للغة، هو تأكيد على نبذ التقليد و الابتذال، لأنهما عنصران لا يثيران في نفس المتلقي شيئا من الإعجاب و المفاجأة، لذلك فإن تخطي النظام اللغوي المألوف يشكل أسسا راسخة في الإعجاز القرآني، و قد تجلى هذا الإعجاز في الاختيار الإلهي للألفاظ القرآنية المعجزة.

و يعتمد تحديد العدول في النص الأدبي و القرآني بخاصة على معرفة القارئ بقواعد اللغة أولاً و بالقراءات القرآنية ثانيا، فهو عندما يصادف كسرا لنظام اللغة و تشويقا لما هو ثابت في ذهنه، يتولد لديه إحساس بالمفاجأة و الإعجاب في غير المنتظر.

و هذا الإحساس يأسر القارئ و السامع معاً، و يكون لديه طرافة و غرابة بسبب تحاشي اللغة المألوفة. إن العدول اللغوي يهدف من ورائه المبدع لتحقيق نوع من الجمال الفني. و علم المعاني –مثلا– يبيح خروج الكلام عن أصل وضعه، فأبوابه تقوم أساسًا عن العدول على مستوى الاستخدام المألوف.

و لنعلم أن القراءات القرآنية توقيف من الله تعالى، فالقراء الأوائل أخذوها سماعًا عن الرسول صلى الله عليه و سلم، و أمر تعدد القراءات القرآنية تيسير من الله على عباده، فلا يجوز العدول إلا بما ورد في القراءات السبع أو العشر، أما الشاذة، فهي من اللغة العربية، غير أنه لا يصح التعبد بها.

و لقد وردت في القرآن الكريم ألفاظ كثيرة خرجت عن القياس اللغوي. و يستطيع المتلقي الخبير باللغة العربية أن يكتشفها بمجرد سماعها

أو قراءتها، لأنها ببساطة تجذب المتلقي لغرابة هيئتها، أو خروجها عن أصل وضعها، أو لاتخاذها صورة مخالفة لبنيتها المألوفة. و يمكن تصنيف هذه الألفاظ بحسب طريقة عدولها كالآتي :

أ- العدول الصوتي بتغيير الحركة :

بَعْدَ ضبط القرآن الكريم على يد أبي الأسود الدؤلي (ت 69هـ)، صار ذلك قاعدة متبعة في القرآن باتفاق الأئمة، و ما خرج عن تلك القاعدة يعد من القراءات الشاذة، التي لا يتعبد بها، و لكن يظل الاستشهاد بها على لغات العرب مقبولا، غير أن العدول عن هذه القاعدة في القرآن فيه سر من أسرار العربية، و بخاصة إذا كان العدول مقصودًا لحقيق غرض جمالي أو دلالي.

و لنقرأ قوله تعالى : " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، و من أوفى بما عاهد عليهُ اللهُ فسيؤتيه أجرًا عظيما "، الفتح، 10، فقد قرأ حفص : " بما عاهد عليهُ الله " مضمومة الهاء على أصل حركتها، و قرأ الباقون : " عليه " بكسر الهاء لمجاورة الياء "(22).

فالشائع في كلام العرب أن حركة ضمير الغائب إذا سبق بياء أو بكسر، فإنه يكسر، كما في "عليه" من قوله تعالى : " فاعبُده و توكل عليهِ ". هود، 123، و قوله تعالى : " و إذ تقول للذي أنعم الله عليهِ و أنعمت عليه ". الأحزاب، 37، فالضمير " هاء الغائب " جاء مكسورًا في كل هذه الحالات، إلا ما ورد في الآية السابقة،و هو ما يمثل عدولا عن القاعدة المطردة، غير أن القرآن لا يتخذ أسلوبًا آخر في الكلام إلا إذا كان وراء ذلك سر لغوي، فما السر الذي يحمله ذلك العدول ؟

لو عدنا إلى سبب نزول هذه الآية لوجدناها نزلت في بيعة الرضوان، و نظرا لعظم شأن هذه البيعة كان الله شديدًا في وعيده للمخالفين(23).

و الظاهر من وراء ضم الضمير المجرور في" عليهُ" أن الآية وردت في أمر عظيم، فالبيعة لله تعالى تستلزم التعظيم و التوثيق، و الضم فيه دلالة على هذه المناسبة، و لذلك لو ورد الضمير المجرور في " عليه " مكسورًا حسب القاعدة المألوفة يكون ترقيقا، و هو قد لا يتناسب والمقام، فالمعاهدة و الوثاق عظيم على كاهل الصحابة، فكان للضم دور في إظهار الموقف و تصوير جسامته في صورة صوتية جمالية مناسبة.

و قد يعدل من الصامت إلى الصائت لقيمة جمالية، كما في كلمة " قيله " التي وردت في قوله تعالى : " و قيلهِ يا رب إنَّ هؤلاء قوم لا يؤمنون "، الزخرف 88. قال ابن كثير : " و قيلهِ، أي : وقال محمد صلى الله عليه و سلم، أي : شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال : " يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ". و هذه قراءة عاصم و حمزة، (24)، قال القرطبي (ت 671هـ) : " و قيله " فيه ثلاث قراءات بالنصب، و الجر، و الرفع، فأما الجر فهي قراءة عاصم و حمزة، و بقية السبعة بالنصب، أما الرفع فهي قراءة الأعرج و قتادة و بن هرمز، و مسلم بن جندب، فمن جر حمله على معنى : " وعنده علم الساعة و علم قيله، و من نصب فعلى معنى و عنده علم الساعة، و يعلم قيله، و هذا اختيار الزجاج "(25).

ب – العدول الصوتي بواسطة الإبدال :

من مظاهر العدول الصوتي عن طريق الإبدال ما ورد في قوله تعالى : " لستَ عليهم بمصيطر"، الغاشية،22، فلفظة " مصيطر " من مادة (س ط ر)، و لذلك يلحظ العدول الصوتي من خلال إبدال السين بالصاد، و تبدو المناسبة واضحة بين طبيعة الصوت المفخم، و الموقف الذي تدل عليه الآية. فالخطاب موجه إلى الرسول محمد عليه الصلاة و السلام، أي : لست – يا رسول الله – بمتسلط جبار عليهم، تجبرهم على الإيمان أو تكرههم عليه، و هي دعوة من الله تعالى إلى نبذ التجبر على الناس وأمرهم بالقوة، لأن الهداية لا تكون إلا من عند الله. فلما كانت السيطرة تدل على التجبر و القوة، جاءت اللفظة بالصاد المفخمة المجسدة للموقف بدلاً من السين المهموسة التي تدل في الغالب على اللين والهمس.

و ما قيل في هذا الموضع ينطبق على ما ورد في قوله تعالى : " وزادكم في الْخَلْق بَصطَةً ". الأعراف،69، فقد أبدلت السين صادًا، يقول أبو حيان : " و الظاهر أن بصطة بمعنى الامتداد و الطول، و الجمال في الصورة و الأشكال "(26). و قال القرطبي : " و يجوز " بصطة " بالصاد، لأن بعده طاء، أي : طولاً في الخلق، و عظم الجسم "(27). ويبدو من استخدام الصاد بدل السين قصد تشخيص الامتداد في الطول الذي كان على خلق آبائهم. فقد أشار بعض المفسرين إلى أنهم كانوا على طول عظيم.(28).

و لذلك نجد الصاد المفخم دالا على الجسم الضخم، فهناك علاقة بين الدال و المدلول.

جـ -العدول الصوتي بواسطة الإدغام و فكه :

من الظواهر الصوتية التي وظفها القرآن ظاهرة الإدغام، و يؤتى بالإدغام في سياق لغوي معين لغرض دلالي جمالي، فالقرآن لا يتخذ اللغة النموذجية مقياسًا دوما، بل قد يجنح إلى بعض لغات العرب على قلتها، من ذلك الإدغام في قوله تعالى : " ذلك بأنهم شاقُّوا الله و رسوله، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب "، الحشر،4، و هي لغة تميم، و قرأ طلحة بن مصرف بن السميقع : " و من يشاقق الله و رسوله فإن الله شديد العقاب " بإظهار التضعيف في القاف، كالتي وردت في الأنفال، الآية، 13، و هي لغة أهل الحجاز، و قراءة جمهور القراء.

و يلحظ من القراءتين أنه لما ذكر لفظ الجلالة وحده كان الإدغام، و لما جاء ذكر الرسول صلى الله عليه و سلم معه أظهر الصوتان، ذلك ليعلم القارئ أن من يشاق الله، فإنه سيعاقبه عقابًا شديدًا.

وما يلحظ على هذا النوع من الإدغام أنه لفظي و خطي، غير أن ما نجده في أنواع الإدغام الأخرى أنها تقتصر على النطق، فهي مثبتة خطيا على أصلها. و إذا تأملنا قوله تعالى : " أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمَّن لا يَهدي إلا أن يُهدَّى فمالكم كيف تحكمون "، يونس،35. فالعدول الصوتي تم في لفظ " يُهَدى " التي أصلها " يهتدي "، و لم ترد إلا في هذا الوضع من القرآن، و قد دلت ببنيتها الصوتية و بنبرتها و نغمتها على التثاقل الذي يبدو على المتخاذلين الذين لا يهتدون أبدًا إلا أن يُهدوا، و لا يكادون يهتدوا، بل الهداية مع التراخي الذي اتسموا به لا تتحقق في كل حال من أحوال حياتهم.

و مثل هذا كثير، من ذلك قوله تعالى : " و ترى الشمس إذا طلعت تَزَاوَرُ "، الكهف،17، و قد قرأها بالإدغام حمزة و عاصم و الكسائي، و قرأ ابن عامر " تزور "، مثل : تحمر، و أصلها تتزاور، أي : تميل. و قوله : " و يوم تشقق السماءُ بالغمام ".الفرقان، 25، أي: تتشقق، و قرأها بالإدغام أربعة من القراء.

و قوله أيضا: " فأنت له تصدَّى ".عبس،6، أصلها : تتصدى، و هي قراءة عدد من القراء السبعة.

و خلاصة القول: إن للعدول الصوتي أثرًا جماليا و دلاليا، حيث تتضافر المستويات الصوتية و الصرفية و النحوية

و المعجمية في آن واحد، لتصوير المواقف في أسلوب محكم دقيق. فهذه المعاني يدركها السمع أولاً قبل أن يدركها العقل، لأن مصادر هذه المعاني ينطبع في النفس، فيؤثر على الحس و الوجدان، فيبهرها بنبرات و نغمات، تحرك فيها المشاعر و الأحاسيس.

د- العدول الصوتي بالحذف :

تحذف من بنية الكلمة أصوات في مواضع معينة من القرآن، و قد يأتي هذا الحذف لغرض موافقة الفاصلة، أو لغرض جمالي أو دلالي، فمن ذلك قوله تعالى: " و الليل إذا يسر ". الفجر،4، قرأ أهل الحجاز :" يسري " بإثبات الياء في الوصل، و يقف ابن كثير

و يعقوب بالياء -أيضا- و القراء الباقون يحذفون في الوصل

و الوقف، و استحسن الفراء (ت 207هـ) هذه القراءة، و عدها الأنسب، إذ يقول : " وحذفها أحب إلي لمشاكلتها رؤوس الآيات، لأن العرب قد تحذف

الياء و تكتفي بكسر ما قبلها منها "[29]، غير أن القاعدة المشهورة عند النحاة هي إثبات لام الفعل في المضارع المعتل الآخر، و قد يكون لحذف هذا الصوت المديد علاقة بقصر سريان الليل، و القرآن عبر عن الزمن القصير بحذف الحركة الطويلة...

و ما نذهب إليه أن مشاكلة الفاصلة ليست علة عامة، إذ ليس من الصعب على القرآن أن يأتي بلفظة أخرى تؤدي المعنى نفسه و الغرض ذاته من دون أن يتكلف في ذلك حذفا يشاكل به الفواصل السابقة. و قد يكون الحذف بسبب طول الآية، فلا يجوز إلا في مقام يستدعيه ضرب من التناسب، كما في الآية المذكورة آنفا : " و الليل إذا يسر "، فبالإضافة إلى رعاية الفاصلة القرآنية القائمة على الراء المكسورة، تأبى أن تطول الكسرة بعد الراء في الفعل " يسر "، فيكون منها إطالة الصوت، و في ذلك مراعاة لطول الفواصل التي تضمنتها الآيات، و لما كانت الآيات لا تحمل ذاك الطول المقدر، حذفت تناسبًا، كما حذفت في مثل قوله تعالى : " فكيف كان عذابي و نذرِ "، القمر،16. و تكررت كلمة " نذر " التي لحقها الحذف في الآيات الموالية لها، و ذلك في الآيات: 18، 21، 30، 37، 39.

هـ- العدول الصوتي بالزيادة :

قد تزاد أصوات في بعض المواضع من القرآن، و ليست الزيادة إلا لتحقيق غرض جمالي، و من ذلك زيادة هاء السكت في قوله تعالى : " فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيهْ، إني ظننت أني ملاقي حسابيهْ، فهو في عيشة راضية، في جنة عالية، قطوفها دانية، كلوا و اشربوا

هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية، و أما من أوتي كتابه بشماله، فيقول يا ليتني لم أوت كتابيهْ، و لم أدري ما حسابيهْ، يا ليتها كانت القاضية، ما أغنى عني ماليهْ، هلك عني سلطانيهْ "، الحاقة،19،-29، و قوله أيضا : " فأمه هاوية، و ما أدراك ما هيهْ، نار حامية "، القارعة،9، 10،11.

يلحظ زيادة هاء السكت في فواصل الآيات: " كتابيه، سلطانيه، حسابيه، ماليه، ما هيه"، و هي لا تعدو أن تكون لرعاية الفاصلة، غير أن القول بزيادة هاء السكت لرعاية الفاصلة قد يتعارض مع المعنى، و هذا لا يصح أن يقال عن آي القرآن الكريم، لأن الفواصل تبع للمعنى، لا العكس، إلا أن ما يمكن ملاحظته أن الهاءات جاءت في فواصل الآيات، و صوتها ناتج عن الانفراج الواسع لأعضاء النطق، و قد نشعر عند نطقنا للهاء أنه صوت يخرج من أعماقنا، مما يجعله صالحا للتعبير عن مشاعرنا و أحاسيسنا، و لذلك نتصور أنه تعبير عن آهات و حسرات الناس يوم الحشر، و هم حفاة عراة، ينتظرون أدوارهم في قلق و اضطراب، فمن أخذ كتابه بيمينه ، فقد فاز الفوز العظيم، و من أوتي كتابه بشماله، فقد خسر الخسران المبين.

و من هذه الزيادات -كذلك- ما ورد في لفظ " سينين " من قوله تعالى : " و التين و الزيتون و طور سينين "، التين،1،2.

و قد اختلفت في أصل هذه الكلمة، فأورد صاحب تفسير الجامع لأحكام القرآن " عن ابن أبي نجيح عن مجاهد " طور "، قال : جبل، " سينين "، قال : مبارك بالسريانية، و عن عكرمة عن ابن عباس قال : "طور ": جبل ، و"سينين" : هو المبارك الحسن، و عن عكرمة قال : الجبل الذي نادى الله جل ثناؤه منه موسى عليه السلام، و قال مقاتل و الكلبي : " سينين " : كل

جبل فيه شجر مثمر فهو سينين، و سيناء بلغة النبط، و عن عمرو بن ميمون قال : صليت مع عمر بن الخطاب العشاء بمكة، فقرأ : " و التين و الزيتون و طور سيناء، و هذا البلد الأمين "، و هذا في قراءة عبد الله "(30).

و ما يدل على أن القرآن عدل في هذا السياق عن لفظة " سيناء " في سورة التين، هو ما نجده على أصله في قوله: "و شجرة تخرج من طور سيناء "، المؤمنون، 20.

فالقرآن ينتقي أصواتا معينة للفاصلة وقد يكون بقصد الترنم و التطريب ، فيؤتى حينئذ بالنون بعد حركة طويلة ، و في هذا يقول صاحب البرهان في علوم القرآن :" الحكمة في كثرة إلحاق المد و اللين و النون وجود التمكن من التطريب بذلك كما قال سيبويه : إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف و الياء و النون ، لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا ، و جاء القرآن على أسهل موقف و أعذب مقطع "(31).

فعناية القرآن بالجانب الصوتي من حيث المشاكلة و التناسق لا يعني أبدا الإخلال بالمعنى، بل جاءت هذه العناية لتضفي على الأسلوب قيمة دلالية و جمالية يتحقق بمقتضاها الإعجاز.

3- التكرار الصوتي:

التكرار ظاهرة ملحة، و يعد من خصائص اللغة العربية، هو من الأساليب المعروفة عند العرب، بل هو من محاسن الفصاحة، يقول الجاحظ مبينا قيمته: " إن الناس لو استغنوا عن التكرير، و كفوا مؤنة البحث و التنقير لقل اعتبارهم، و من قل اعتباره قل علمه،..."(32).

و لقد ورد التكرار في القرآن الكريم كثيرا، و لأغراض عديدة، و مع أن " التكرار في أسلوب الكلام العادي قد لا يسلم معه من القلق و الاضطراب، إلا أنه جاء في كلام الله محكما، و لكون هذه الظاهرة بارزة في القرآن، فقد تعرض لها المفسرون

و البلاغيون، و بينوا جزءا من أبعادها و دلالاتها على اختلاف مواقعها "(33) .وذلك لأن " المعاني أوسع مدى من الألفاظ، و هذا يستدعي إعادة الألفاظ على أوجه مختلفة من الهيئات أو الدلالات المجازية و الرمزية لاستيفاء المعاني "(34).

و تعود مزية تكرير الصوت اللغوي بعامة و القرآني بخاصة إلى أمرين : الأولى تعود إلى موسيقاه و نغمه، و الثانية إلى معناه.

أ- موسيقى الصوت :

لقد وردت أصوات القرآن الكريم على درجة عالية، جسدها حسن انتقاء الأصوات ذات النغمات المنسجمة. و لنتأمل -مثلا- تكرار الفواصل في سورة بأكملها مثلما ورد في سورة الشمس: "

و الشمس و ضحاها، و القمر إذا تلاها، و النهار إذا جلاها..." ففواصل السورة تنتهي جميعها بالهاء الممدودة. و لا شك أن الصوت الممدود يترك أثرا عذبا في نفس المتلقي، فينساق له،و ينجذب إليه.

ب- دلالة الصوت المكرر :

يضفي تكرار الصوت بعدا موسيقيا يعد مكونا للبنية الصوتية داخل التركيب اللساني، و يمكن أن يقوم هذا التكرير " على علاقة بين البنية الصوتية أو مجموعة من الفونيمات بصوت معين تحاكيه البنية محاكاة

مباشرة أو غير مباشرة، و في الحالة الأخيرة تثير المحاكاة الصوتية تجربة غير صوتية، و معنى هذا هو رصد العلاقة المتضمنة بين الشكل و الدلالة "(35). فالبنية الصوتية تحمل في مخزونها دلالة، يستطيع المتلقي أن يجسدها. و لنتأمل ما يدل عليه التكرار المضاعف في مثل قوله تعالى : " إذا زلزلت الأرض زلزالها "، الزلزلة، 1، و " من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس "، الناس، 4، 5.فالفعل في قوله : " زلزلت "، و " يوسوس " فيه تكرار الفعل، فالأول يجسد صوت الزلزلة الذي يتكرر في " زل "، و الثاني يشخص صوت الوساوس المكرر في " وس ".

و أعرض لبعض الأصوات المكررة في القرآن الكريم فيما يأتي :

- تكرار صوت التاء:

التاء صوت أسناني لثوي مهموس، و قد يصحبها الجهر إذا وليها صوت مجهور، و لنتأمل أثر صوت التاء في تشكيل البنية الدلالية، من ذلك قوله تعالى : " إذا الشمسُ كورتْ، و إذا النجومُ انكدرتْ، وإذا الجبالُ سُيرتْ، و إذا العشارُ عطلتْ، و إذا الوحوشُ حشرتْ" إلى قوله:" علمتْ نفسٌ ما أحضرتْ".التكوير، 1-14.

و قوله : " إذا السماءُ انشقتْ، و أذنتْ لربهاَ و حقتْ، و إذا الأرضُ مدتْ، و ألقتْ ما فيها و تخلتْ، وأذنتْ لربها و حقتْ ". الانشقاق، 5.

هذه الآيات تتحدث عن أهوال يوم القيامة: حالات السماء، الكواكب، الجبال، البحار، الوحوش، النفوس، الأرض، الجحيم، الجنة...و يتبين القارئ أن هناك علاقة بين حال الكائنات يوم القيامة و الأصوات الموظفة لتصوير تلك الحالة، فصوت التاء يدل على الجو العام لمضمون الآيات؛ فصوت التاء

فيه همس لا يكاد يفهم، فالناس يومئذ في هول عظيم، يهمسون إلى بعضهم باحثين عن الإجابة، لكن لا مجيب.

- تكرار صوت الراء:

الراء تكراري انفجاري مجهور، فهو يؤلف صورا مشحونة بالعنف و الشدة غالبا، و من تلك الصور التكرارية ما ورد في قوله تعالى : " فالمدبرات أمراً، يوم ترجف الراجفةُ، تتبعها الرادفةُ، قلوب يومئذ واجفةٌ، أبصارها خاشعةٌ، يقولون أإنا لمردودون في الحافرة، أ إذا كنا عظاما نخرةً، قالوا تلك إذا كرة خاسرة، فإنما هي زجرة واحدةٌ، فإذا هم بالساهرة ". النازعات، 5 ،14.

تكررت الراء في الآيات تسع مرات، و هذا التكرار يجمل دلالة، و لو نظرنا إلي سياق الآيات لوجدناها تتحدث عن أهوال يوم القيامة، و حال المكذبين به، فإن معنى " ترجف الراجفة ": هو قيام الساعة، فهي نفخة واحدة في الصور تجعل الجميع ينتهي، ثم تتبعها " الرادفة ": و هي حركة أخرى من نوع الأولى أين يحدث زلزال آخر، عندها تتزعزع قلوب الخلائق من شدة ما يرى و يسمع، و " قلوب يومئذ واجفة "، أي : مضطربة قلقة من شدة ما ترى و تسمع... و هكذا.

إن هذا الجو الصاخب، المخيف تجسده تلك البنى الصوتية التي طبعها صوت الراء، فوظفت في رسم صورة حية لموقف الخلائق يوم القيامة، و هي أصوات يطغى عليها طابع الشدة، و هي تناسب المعاني التي يراد إيضاحها للمتلقي.

- تكرار صوت الكاف :

الكاف صوت حنكي انفجاري مهموس، و قد يكسب صفة الجهر إذا ورد في سياقات معينة نحو مجاورته الباء.

و من تكرار صوت الكاف ما ورد في قوله تعالى : " فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها و قالت عجوز عقيم "، الذاريات، 29، و قوله : " كلا إذا دكت الأرض دكا "، الفجر، 21. ففي كل من "الصك" و "الدك" عنف و شدة، لما يحدث من أحداث إثر ذلك الفعل، و قد حمل صوت الكاف المكرر دلالتها في الآيتين، زيادة عن التوكيد المصدرة "دكا" في الآية الثانية.

- تكرار صوت الميم:

الميم صوت شفوي أنفي مجهور، و تتذبذب الأوتار الصوتية عند النطق به (36).

و قد ترددت الميم في نهاية الآيات -مثلا- في سورة محمد في ثمان و ثلاثين مرة. فالفاصلة القرآنية في هذه السورة عبرت عن شحنات يسودها الغضب و التهديد للكافرين الذين جاء ذكرهم في فاتحة السورة " الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله أضل أعمالَهم ". محمد، 1، فالغنة مثلما تستخدم للتطريب، قد تستخدم كذلك للغضب، فهي علاقة دالة عليه، هنا ما يتجسد لنا في غالبية هذه السورة، فهي تتحدث عن حال الكافرين و مصيرهم،
و استدعى السياق الحديث عن عقبى المؤمنين.

- تكرار صوت النون :

و هو صوت أسناني لثوي أنفي مجهور، تصاحبه غنة شجية، تطرب لها الأذن، و تميل إليها النفس، و لذلك يكثر دخوله في التراكيب تطريبا و تشجية (37).

و قد اعتمد القرآن النون فاصلة في سور عدة، منها سورة يونس، التي ورد فيها صورت النون مكررا في فواصل الآيات في تسع و تسعين مرة، و ذلك ليجذب الأسماع قصد تدبر آي القرآن التي لا تخلو من الترغيب و الترهيب.

- تكرار صوت الهاء :

الهاء صوت حنجري احتكاكي مهموس(38)، و قد تكرر في الفواصل القرآنية، من ذلك ما ورد في سورة الشمس : " و الشمس و ضحاها، و القمر إذا تلاها" إلى قوله: "و لا يخاف عقباها "،الشمس،1-15.

فقد تكرر صوت الهاء في الفواصل خمس عشرة مرة، و هو عدد الآيات. و إذا نظرنا إلي سياق الآيات نجد المعاني تعبر عن مكنون النفس البشرية بطريقة توحي بالتفجع و التحسر، أو تومئ بالارتياح و الطمأنينة.

و قد نجد هذه الحالة لنفسية في فواصل الآيات التي تنتهي بصوت الهاء، سواء أكان أصلها تاء، أو هاء أصلية و ذلك في مثل سورة الحاقة : "الحاقة، ما الحاقة، و ما أدراك ما الحاقة، كذبت ثمود و عاد بالقارعة"إلى قوله:"يا ليتها كانت القاضية "، الحاقة، 1-27.

فقد كان للفاصلة، دلالة صوتية مميزة في إبراز حالة اليأس و الشقاء الذي يعانيه الكافرون في جهنم، و هم يعذبون، و يقول أحدهم عندما يلاقي

صحائفه : " يا لتني لم أوت كتابيه، و لم أدري ما حسابيه، يا ليتها كانت القاضية "، الحاقة، 25–27.

أما الصورة الأخرى المعاكسة لهذه الصورة، و هي حال المؤمنين المطمئنة قلوبهم، و هم الذين أوتوا كتابهم بيمينهم : " فأما من أوتي كتابه بيمينه، فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه، إني ظننت أني ملاق حسابيه، فهو في عيشة راضية، في جنة عالية، قطوفها دانية، كلوا و اشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية "، الحاقة، 19–24. فقد أسهم صوت الهاء المهموس في إبراز حال الفئتين.

4- تكرار الفاصلة:

يراد بالفاصلة في القرآن الكريم آخر كلمة في الآية، فهي بمثابة قافية الشعر، و قرينة السجع في النثر، و لعل الرافعي من المحدثين الذين التفتوا إلى ما للفواصل القرآنية من أثر جمالي، إذ يقول : " و ما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، و هي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت و الوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، و تراها أكثر ما تنتهي بالنون و الميم، و هما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمد، و هو كذلك طبيعي في القرآن... و هذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، و أثرها الطبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، و كل نفس لا تفهمه، ثم لا تجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار و الاستجابة "(39).

و الفواصل – كما قسمها العلماء – أنواع، منها المتماثلة

و المتقاربة، و المتوازية، والمتوازنة، والقصيرة، والمتوسطة، والطويلة، و نمثل لهذه الأنواع فيما يأتي:

1- **الفواصل المتماثلة:** و هي ما تماثلت أصواتها كصوت النون في سورة الرحمن: " الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان"إلى قوله:"فبأي آلاء ربكما تكذبان "، الرحمن، 1-77.

يلحظ أن الفاصلة في " يكذبان " تكررت في هذه السورة وحدها إحدى و ثلاثين مرة.

أو صوت الراء في " سورة القمر: "اقتربت الساعة و انشق القمر، و إن يروا آية يعرضوا و يقولوا سحر مستمر". إلى قوله:" إن المتقين في جنات و نهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ".القمر، 1-55، حيث تكرر صوت الراء في كل فواصل آيات هذه السورة مما يجعل الجهاز السمعي ينجذب إليه بفعل إعادة القالب الصوتي الأخير الذي يحمل زنينا محببا إلى النفس.

2- **الفواصل المتقاربة** : و هي ما تقاربت أصواتها، كصوت النون

3- و الميم، إذ تشتركان في النغمة، من ذلك ما ورد في سورة يس : " يس، و القرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين، على صراط مستقيم"إلى نهاية السورة ، يس 1-83. فقد تنوعت بين الميم و النون.

4- **الفواصل المتوازية:** و هي ما تتفق فيها الكلمتان في الميزان و أصوات الفاصلة، كقوله تعالى:" سأل سائل بعذاب واقع، للكافرين ليس له دافع ". المعارج، 1، 2، و قوله : " لا أقسم بيوم القيامة،

5- و لا أقسم بالنفس اللوامة، أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه، بلى قادرين على أن نسوي بنانه". إلى قوله: "فإذا برق البصر،

و خسف القمر، و جمع الشمس و القمر، يقول الإنسان يومئذ أين المفر، كلا لا وزر ". القيامة، 1-11.

6- **الفواصل المتوازنة:** و هي التي يهتم فيها بمقاطع الأصوات، كقوله تعالى:"و الصافات صفا، فالزاجرات زجرا، فالتاليات ذكرا " الصافات، 1-3. و للفاصلة في هذا النوع جمال و حسن مثل سابقيه، تتذوقه الأذن، و قد يغنيها عن مطابقتها بوحدة الوزن و الروي، فهي تتجاوب مع المقطع النغمي المتوازن.

7- **فواصل المطرف** : و هو ما تتفق فيه الكلمتان في أصوات الفاصلة، لا في الميزان، نحو قوله تعالى : " للطاغين مآبا، لابثين فيها أحقابا، لا يذوقون فيها بردا و لا شرابا، إلا حميما و غساقا، جزاء وفاقا، إنهم كانوا لا يرجون حسابا، و كذبوا بآياتنا كذابا ". النباء، 22-28.

فالفواصل تنتهي في الروي بالباء الممدودة، و فاصلتان اشتركتا في الروي بالقاف الممدودة، دون مراعاة الوزن. و هذا النوع من الفواصل يحقق لونا من التناسب المقطعي؛ فاللفظة الأخيرة –مثلا– من القرينة الأولى تتألف من مقطع قصير + مقطعين طويلين متتابعين، أما اللفظة الأخيرة من القرينة الثانية فتشترك مع اللفظة الأولى في المقطعين الطويلين الآخرين، و تختلف معها في المقطع الأول، فهو في الأولى قصير، و في الثانية طويل، و يتكون من صامت + صائت قصير + صامت.

و تكرر هذا النوع في مواضع من القرآن الكريم، منها ما ورد في قوله تعالى : " كلا إذا بلغت التراقي، وقيل من راق، و ظن أنه الفراق، و التفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق ". سورة القيامة، 26-30.

8- **فواصل قصيرة:** و هي ما تألفت من ألفاظ قليلة. و أعد محمود أحمد نخلة هذا النوع أصعب "أنواع التسجيع مسلكا
و أصعبها مدركا، و أخفها على القلب، و أطيبها على السمع "(40)، و ذلك نحو قوله تعالى : " فإذا النجوم طمست، و إذا السماء فرجت، و إذا الجبال نسفت، و إذا الرسل أقتت، لأي يوم أجلت "، سورة المرسلات، 8-12.

9- **فواصل متوسطة:** و هي ما دون عشر ألفاظ، نحو قوله تعالى : " ن و القلم و ما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون،
و إن لك لأجرا غير ممنون "، سورة القلم 1-3.

10- **فواصل طويلة:** و هي ما زاد على عشر ألفاظ، و قد إلى عشرين، و ذلك نحو قوله تعالى: "قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا، فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوه بكرة و عشيا ". سورة مريم، 10، 11، فهذه السورة تشتمل على فواصل طويلة، و قد اعتمد كثيرا على فاصلة الياء الممدودة.وقد يتكئ القرآن على فالصلة الراء، نحو قوله تعالى:"إن أرسلناك بالحق مبشرا و نذيرا وإن من أمة إلى خلا فيها نذير ، وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر و بالكتاب المنير ، ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير".فاطر،26،24.

و الظاهر أن أساس اختيار الفواصل في القرآن الكريم، إنما يأتي بحسب المعنى، لا لغرض شكلي، أو لمراعاة الفاصلة، كما يتصور بعض الباحثين. فاختيار الفواصل قد يحقق الغايتين معا، أي:الجانب الدلالي و رعاية الفاصلة، فالفواصل –إذن– تبع للمعاني، و هذه أبرز سمة أسلوبية،

اختص بها القرآن، إذ أنه لم ينتق الألفاظ أو التراكيب التي تعد من اللغة النموذجية، أو الأساليب المشهورة، و إنما كان ينتقي الأساليب التي تخدم المعاني.

الخاتمة:

قد تبين من خلال هذا البحث ما يأتي:

- إن للصوت اللغوي أهمية في دراسة النص القرآني ، من حيث إنه البنية اللغوية الصغرى المكونة للكلمات و التراكيب و الآيات، فهو عنصر أساس في الإعجاز القرآني.
- إن القرآن ينتقي الأصوات بحسب الدلالات قصد تجسيد المعاني في أحسن صورة.
- يعد العدول الصوتي أحد الأساليب الجمالية التي يعتمدها النص القرآني، وهو أداة جمالية غايته جذب الأسماع من خلال خرق قوانين اللغة المثالية قصد تفجير الطاقات الإبداعية، فترتفع الرتابة، وتنهض النفوس من غفلتها.
- تنشأ دلالة الصوت بداية من التراكيب، و قد اتسم الصوت القرآني بقوة التأثير انطلاقا من سهولة الأصوات حين ائتلافها، و إحساس الأذن بعذوبتها حين الترنم و التطريب.
- ارتباط الفاصلة القرآنية بمعاني التركيب والآيات ، فلم يقتصر على رعاية حسن النظم فحسب ، وإنما اهتم مع ذلك وقبله بالمعنى.

- يتم العدول عن القياس اللغوي بواسطة الحذف، كما في قوله تعالى:" فكيف كان عذابي و نذر".القمر، 18، 21، 30، حيث حذفت الياء من آخر كلمة "نذر" لموافقة الفواصل السابقة في السورة.

- كسر الإيقاع ، وذلك لرفع الرتابة عن المتلقي بواسطة التنوع و المراوحة بين الكم النغمي ، أو المغايرة الإيقاعية لجذب الأسماع ، فتأتي الفواصل قصيرة، ثم متوسطة، ثم قصيرة، ثم طويلة، أو العكس ، أو لا تلتزم ترتيبا واحدا ، وهذا ما يلحظ عند قراءة بعض السور مثلما ورد في سورة طه : " قال رب اشرحْ لي صدريِ ، ويسر لي أمريِ، واحللْ عقدةً من لسانيِ ، يفقهُوا قوليِ ، واجعلْ ليِ وزيرًا من أهليِ ، هارون أخيِ ، أشدد به أزريِ...".طه،25،31، فقد تنوعت الآيات بين الفواصل الثلاث للمراوحة بين الأنغام لجذب الأسماع ، وتدبر معاني الآيات.

الهوامـــش و المراجـــع

(1) الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، راجعه و اعتنى به نجوى عباس، مؤسسة المختار، مصر الجديدة، القاهرة، ط1، 2003، ص135.

(2) الرافعي، تاريخ آداب العرب، راجعه و اعتنى به درويش الجندي، المكتبة العصرية، بيروت، 2005، 147/2.

(3) الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، راجعه و اعتنى به نجوى عباس، مؤسسة المختار، مصر الجديدة، القاهرة، ط1، 2003، ص 27.

(4) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، 116/2.

(5) ابن جني، الخصائص، تحقيق علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1955، 152/2.

(6) ابن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقا
و آخرين، مطبعة البابي، القاهرة، 1953، 6/1.

(7) الرافعي، إعجاز القرآن، ص 167.

(8) عبد الحميد هنداوي، الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2004، ص 13.

(9) الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص 168.

(10) المرجع نفسه، ص 169.

(11) سيد قطب، التصوير الفني، دار الشروق، مصر، ط14، 1993، ص 36، 37.

(12) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، حققه عادل أحمد عبد الموجود، و آخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، 21/6.

(13) ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984، 70/15.

(14) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 316/8.

(15) ابن عاشور، التحرير و التنوير، 116/29.

(16) سيد قطب، التصوير الفني، ص 95.

(17) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، ط22، 1994، 3834/6.

(18) محمد عبد المطلب، البلاغة و الأسلوبية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لو نجمان، مصر، 1993، ص 268.

(19) المرجع نفسه، ص 269.

(20) ابن جني، الخصائص، 282/1.

(21) موسى سامح ربابعة، الأسلوبية – مفاهيمها و تجلياتها- دار الكندي للتوزيع، الأردن، 2003، ص 45.

(22) ابن زنجلة، حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1997، ص 673.

(23) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 92/8.

(24) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت، 1996، 331/6.

(25) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1985، 124/16.

(26) أبو حيان، البحر المحيط، 328/4.

(27) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 236/7.

(28) المرجع السابق، 236/7، و الزمخشري، الكشاف، دار الفكر، بيروت، 1979، 87/2.

(29) الفراء، معاني القرآن، تحقيق عبد الفتاح إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972، 273/3.

(30) القرطبي، الجامع، 45/8.

(31) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، 68/1، 69.

(32) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1964، 181/3.

(33) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق محمد حسن جبل، دار المعرفة الجامعية مصر، 1999، ص 232.

(34) عز الدين علي السيد، التكرير بين المثير و التأثير، دار الطباعة المحمدية، مصر، ط1، 1978، ص4.

(35) حسن ناظم، البنى الأسلوبية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص98.

(36) كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب لطباعة، القاهرة، 200، ص 348.

(37) 6عز الدين السيد، التكرير بين المثير و التأثير، ص 12.

(38) كمال بشر، علم الأصوات، 304، 305.

(39) الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص 170.

(40) محمود أحمد نحلة، دراسات قرآنية في جزء عم، دار العلوم العربية، بيروت، 1989، ص 178.